أسطورة الخليقة البابلية

١ — العثور عليها ونشرها

كان القرن التاسع عشر حافلاً باعمال الحفر والتنقيب عما خلفته أمم الشرق القديم في وادي النيل وارض الرافدين . وقد بعث حل رموز الكتابة الهيروغليفية والاسفينية في الناس رغبة وحماسة حملت المستشرقين على نبش التلال القديمة للعثور على مخلفات تلك الامم وقراءتها ودرسها للاهتداء الى تاريخها . وقد كان بين موجودات بين النهرين قطع من الآجر تتعلق بعقائد البابليين القدماء واساطيرهم فيما يتصل منها بالخليقة . ويعود الفضل في كشف هذه الاسطورة خاصة الى لايارد ورسام وسميث . وقد وجدوها بين عامي ١٨٤٨ و١٨٧٦ م في انقاض المكتبة الملكية الى انشأها اشور بانيبال (٦٦٨ — ٦٢٦ ق . م .) في بلاطه في نينوى . وكان هؤلاء الثلاثة يعملون لحساب المتحف البريطاني . وقد بذل سميث جهداً كبيراً في قراءة ما وجد وترتيبه ، ولاحظ ان هناك حوادث تاريخية ثابتة واسماء ورد ذكرها في العهد القديم (التوراة) . واهتدى في اثناء قيامه بعمله هذا ، الى أن هناك اشكالاً عديدة لهذه الاسطورة — ولكن الفكرة العامة فيها واحدة

وقد تصدر نشر هذه التحقيقات على اساتذة العاديات وعلمائها والمستشرقين . لكن اثناء المتحف البريطاني ، كلفوا المرحوم الاستاذ كنج في السنة ١٨٩٨ كتابة بحث ضافٍ عن هذه الاساطير البابلية فاخذ نفسه باستقصاء كل ما عثر عليه المنقبون مما يخص هذا البحث فاهتدى الى أشياء كثيرة كانت بعيدة عن اعين العلماء قبله . واصدر في السنة ١٩٠١ كتاباً كبيراً عنوانه « الكتابات الاسفينية منقولة عن الآجر البابلي في المتحف البريطاني » ثم نشر في السنة التالية كتاباً آخر ضمنه ترجمة للالواح التي تخص الخليقة وسماه « الواح الخليقة السبعة ، او الاساطير البابلية والاشورية المتعلقة بخلق الارض والانسان » ثم نشر ملحقاً للكتابين ضمنه ملاحظاته وتحقيقاته . ولما كانت قراءة هذه الكتب وغيرها من المطولات مقصورة على اهل الاختصاص اخذ امناء المتحف البريطاني على عاتقهم تكليف المستشرقين اصدار نشرات تبحث في هذه الموضوعات وتشمل خلاصة مجهود العلماء ، وقد نشر الدكتور واليس بدج Budge كتيباً اسمه « اسطورة الخليقة البابلية » هو الذي ترجمت عنه ما

اشرت الى انه ترجمة فيما يلي . اما ما بقي فهو ايضاحات وتعليقات ومقابلات واستنتاجات بعضها من مؤلفين واساتذة اشرت اليهم وباقيها لي خاصة

٣ — الغرض من الاسطورة

لم يكن الغرض الذي رمى اليه كاتب هذه الاسطورة الأصلي اظهار الطريقة التي تمّ بها خلق الانسان — فأن هذا الامر جاء في « اسطورة الالواح السبعة » عرضاً . فان الفكرة الاساسية هي اظهار عظمة مردوخ (الاله) وتغلبه على التيمن « تيامات ». ولما عدد الكاتب الامور التي تدل على سلطة مردوخ ذكر فيها خلق الانسان كمظهر من مظاهر هذه القوة . يؤيد ذلك ان اللوح السابع (وهو الذي يلي قصة الخلق المذكورة في اللوح السادس) لا يخرج عن كونه تعداداً لالقاب الشرف التي خلعها الانسان على هذا الاله

كانت كل مدينة بين النهرين تقبل هذه الاسطورة كما هي ، او تعدلها تعديلاً طفيفاً غير جوهري ، لكن الامر الذي يهمنا ان كل مدينة كانت تجعل اسم أهلها القومي مكان اسم الاله الاصلي ، ولعل شيوع اسم مردوخ في كثير من نسخ هذه الاسطورة يعود الى طول زمن السيادة التي فرضتها بابل على غيرها من مدن تلك البلاد ، فقد ظهر من مكتشفات العلماء الالمان وابحاثهم ان أهل اشور وضعوا اسم الههم « اشور » مكان « مردوخ » ولعل الاسم الحقيقي الذي كان في الأصل هو اسم « انليل » اله نيبور السومري (الشتري بحسب نص الكرملي) — وبذلك يكون اسم مردوخ ادخل في القصة حول سنة ٢٣٠٠ ق.م.

٣ — مصادر القصة

مرّ بنا ان هذه الاسطورة القديمة صيغت مختلفة ، وقد كان ذلك طبيعيًّا لكثرة ما تعاقب على بلاد الرافدين من دول وامم . واحرى هذه الصيغ بالبحث ثلاث . الواحدة تعرف « بالاجرة المزدوجة » لانها كانت مكتوبة بلغتين والثانية اسطورة بيروسس والثالثة « اسطورة الالواح السبعة » وتختلف هذه في بعض التفاصيل واسماء الآلهة . وسأنقل الأولى والثانية كما هما اما الثالثة فاكتفي فيها بالبحث العام لانها طويلة جافة

٤ — الاجرة المزدوجة

١: « البيت المقدس . بيت الآلهة في الموضع
المقدس . لم يكن قد صُنع
٢: « لم تكن قد نبتت قصبة ، ولا صنعت شجرة »
٣: « لم تكن قد وضعت لبنة ، ولا اقيم بناء من اللبن
٤: « لم يكن قد صنع بيت ولا بنيت مدينة »
٥: « لم تكن قد صنعت مدينة ولا خلق مخلوق
٦: « مدينة انليل [اي نيبور] لم تكن قد صنعت ،
واكور (مدينة) لم تكن قد بنيت
٧: « ارك لم تكن قد صنعت ، إيريانا لم تكن قد بنيت
٨: « لم يكن القسر قد صنع ، ولا إريدو بنيت

٩:«لم يكن مسكن البيت المقدس ، بيت الآلهة، قد صنع
١٠:«كانت الارض بحراً ،
١١:«حينما كان البحر الاوسط [على شكل] حوض
١٢:«حينئذٍ صنعت اريدو ، وبنيت إساجيل
١٣:«اساجيل في وسط النمر حيث قطن لوجالدلاً زاجا
١٤:«عملت بابل ، وأتيمت اساجين
١٥:«خلق الآلهة أنُوناكي في وقت واحد
١٦:«اعلنت [الآلهة] قدسية المدينة المقدسة مسكن سعادة قلبهم
١٧:«وضع مردوخ حصيرة حلفا على وجه المياه
١٨:«جبل تراباً ، وفرشه على حصيرة الحلفا
١٩: ليمكن الآلهة من الاقامة حيث لم يستطيعوا [بدون مساعدته]
٢٠:«خلق الانسان
٢١:«الالهة اورورو خلقت معه البذرة الانسانية
٢٢:«خلق حيوان الحقل و [كل] الاحياء في الحقل
٢٣:«خلق النهر إدجلات والنهر بوراتُو.

ووضعها في مكانيهما
٢٤:«وسماها باسميهما تماماً
٢٥:«خلق العشب، ونبات المستنقع ، والبذر والانجم
٢٦:« خلق نباتات السهل الخضراء
٢٧:« والارض والمستنقعات والغدران
٢٨:«وبقر الوحش وعجلها، والحجل الوحشي، والنعجة وصغيرها وحمل الزريبة
٢٩:« والنباتات والانجم
٣٠:« والماعز وماعز الجبل ...
٣١:«واقام الرب مردوخ سداً في منطقة البحر
٣٢:« هو . . . . مستقعاً ، واسس غديراً
٣٣:« . . . . . صنعه
٣٤:« خلق القصب ، وخلق الشجر
٣٥:« خلق . . . . في موضعه
٣٦:« وضع لبناً ، وانشأ بناء من اللبن
٣٧:شاد بيوتاً، وانشأ مدناً
٣٨:« اقام مدناً ، ووضع [فيها] مخلوقات
٣٩:«صنع نيبور . وبنى ايكور
٤٠:« (صنع) اركَ) وبنى (إنا)

٥ — ايضاحات للاجزة المزدوجة

الكلمات الموضوعة بين اقواس [هكذا] اضيفت في الترجمة الانكليزية والعربية لتوضح ما حولها . والارقام المستعملة في الايضاحات الواردة هنا هي ارقام الاسطر في الترجمة

(٦) انليل هو آله « الريح » عند السومريين (الشمريين) وهم قوم مجهولو الاصل كانوا يسكنون سهل شنعار منذ الالف الثالثة قبل الميلاد . وكان انليل الهاً عاماً يعبده الكل ويقدمون له القرابين رغم وجود آلهة محلية لكل مدينة . ونيبور هي مدينة انليل ، فهي على ذلك ، عاصمة السومريين الدينية ويسمى كتاب العرب هذه المدينة « نوفار » «أو نفار»

(٧) اركَ وغيرها من اسماء المدن المذكورة في الترجمة هي مراكز الدويلات المتعددة

التي كانت في ارض بين النهرين في فجر التاريخ . وسنكتفي بالاشارة الى الاهم من هذه المدن كانت إرك هذه مركز احدى هذه الدولات المشهورة . وشهرتها تعود خاصة الى ملكها الخرافي جلغامش ، الذي يعتبره البابليون اعتبار اليونان لهرقل البطل الخرافي المشهور

وفي زمن جلغامش حوصرت ارك ثلاث سنوات متوالية حصاراً شديداً حتى قيل في وصف ذلك الحصار « . . . (في ارك) يصرخون كالوحوش ، والفتيات يحن كالحمام وآلهة ارك الحصينة اصبحت ذباباً يتطاير في الازقة . وارواح ارك الحصينة صارت فئراناً تأوي الى حجورها . قد حاصر العدو ارك ثلاث سنوات فأقفلت النوافذ وسدت الابواب ولم ترفع اشتار (الآلهة) رأسها في وجه العدو . . . »

وعلى أثر انتصار جلغامش حكم الناس حكماً قاسياً حتى ملوه فحاولوا التخلص منهُ لكنهم فشلوا اذ اكتشف مؤامرتهم . وتعاقب على ارك ملوك آخرون حتى كان القضاء على سيادتها على يد ملك عيلامي حول السنة ٢٣٥٧ ق . م — فحمل آلهتها — وبقيت هناك حتى ارجعها اشور بنيبال سنة ٦٤٧ ق.م: (History of the Ancient East., Hall P. 178)

(٨) القمر — استعملت هذه الكلمة ترجمة كلمة Deep او Abyss المستعملة في الترجمة الانكليزية . وقد اتبعت التوراة في الترجمة . ففي سفر التكوين (١ : ٢) استعملت كلمة غمر لترجمة كلمة Deep . والكلمة الاصلية « أبسو » Apsu . ولا بد من الاشارة هنا الى انهُ ليس من المؤكد فيما اذا كانت هذه الكلمة تعني الغمر اي العمق المتسع المملوء بالمياه ، او ان الكلمة تعني « وعاء » خاصاً كانت تستعمل في عبادة الآلهة ، ولعل هذا الوعاء حوض كبير او بحر كالذي استعمله سليمان في صحن هيكله والذي يوجد وصفه في الملوك الاول (٧ : ٢٣) والملوك الثاني (١٣:٢٥) وقد كان طوله عشرة اذرع . ولعل المعنى الاول الذي استعملت له الكلمة اقرب الى الحقيقة (راجع التعليق على السطر رقم ١٠)

(١٠) — في هذا وبعض السطور التالية ، اشارة الى الزمن الذي كانت فيه بابل خليطاً من الماء والتراب او بعبارة أخرى كانت مستنقعاً كبيراً ، وكان السكان الاولون متفرقين على جزر كثيرة بارزة ، وعلى هذه الجزر قامت المدن الكثيرة المذكورة في الترجمة ، ولما كان البابليون يذكرون بابل فقد كانوا يعنون « العالم لان بابل كانت لهم العالم كله »

(٣٠) — لوجالدُلأزاجا Lugal-dul-azuga وهو الاسم الذي كان مردوخ معروفاً بهِ في اريدو

(١٥) — خلق — وكل الافعال المفردة المذكرة الواردة في القطعة ، تعود ضمائرها على مردوخ

(٢٣) — ادجلات — نهر دجلة وبوراتو نهر الفرات . في هذا السطر والسطر (٣١)

واقام الرب مردوخ سداً في وسط البحر اشارة الى الزمن الذي بدأ فيه سكان بابل في فجر التاريخ ، يقيمون السدود والحواجز لمنع فيضان النهرين على البقاع المجاورة وبذلك تسنى لهم استغلال قطع الأرض وانبات بعض المزروعات وتدجين الحيوانات التي وجدت مكاناً ترعى فيه لوجود العشب والى هذه الأمور تشير الأسطر ٢٥ — ٣٠

(٣١) مردوخ — كانت بابل احدى المدن القليلة الشأن من مدن بين النهرين ، ولما كانت عظمة الآلهة تتبع عظمة المدينة في ذلك الأثناء ، فقد كان مردوخ ايضاً وضيع الشأن . فلما جاء السوريون من الغرب ، من سوريا ، واحتلوا بابل واتخذوها عاصمة لهم وكانوا اقوياء فنشروا سلطانهم على الأرض المجاورة وفرضوا سيادتهم على البلاد القريبة صار لمردوخ شأن كبير وصار ملك الآلهة اوربب الأرباب واتخذ شخصية انليل بعل نيبور (اي رب نيبور) . وكلمة الرب هي ترجمة Lord الانكليزية ولعل الأصل فيها « مردوخ»

(٤٠) هذا السطر نهاية ما ترجم من الأجرة المزدوجة ، ولكنه ليس نهاية الكتابة الأصلية ، فان الباقي شظايا مهشمة فقط وهو صلاة كانت تتلى في المعابد اكراماً لمردوخ

٦ — اسطورة بروسوس

اتصلت اسطورة الخليقة البابلية باليونان فيما اتصل بهم من آثار هؤلاء القوم ، وكتبها بعض كتاب اليونان فيما كتبوه ، ولذا فقد يقيت لنا صور مختلفة منها ، وأحق هذه الصور بالعناية اسطورة بروسوس (Berosus) وبروسوس هذا كان كاهناً لبعل مردوخ في بابل حول السنة ٢٥٠ ق. م. وكتب كتاباً سماه « تاريخ بابل » اتى فيه على الحقائق التاريخية والتقاليد والاساطير كما عرفها من المصادر الأصلية التي كانت في ايامه . ومن هنا كان الشبه الشديد بين ما كتبه وبين ما اظهرته قطع الآجر البابلية التي ظهرت بعد البحث والتنقيب وفيما يلي ترجمة لما كتبه بروسوس عن خلق الانسان وبدء الأشياء — قال :

«مرَّ دهر لم يكن فيه الا ظلام دامس وغمر مملوء بالماء ، تسكنه احياء مرعبة قبيحة الشكل ... كان رجال لكل منهم جناحان ، وآخرون اربعة ووجهان . كان لبعضهم جسم واحد ورأسان ، الواحدة رأس رجل والأخرى رأس امرأة ، وهكذا في بقية اعضائهم — الواحد مذكر والآخر مؤنث. وكانت اجسام بشرية لها ارجل الماعز وقرونه ، وأخرى لها اقدام الخيل ، وبعض الاجسام كان مقدمها بشرياً ومؤخرها حصاناً وتشبه في شكلها التنطورس (حيوان خرافي) وكانت هناك ثيران لها رؤوس بشرية ، وكلاب لها أذناب سمك . وخيول لها رؤوس كلبية ، وبشر وحيوانات اخرى برؤوس خيل وأجسامها وأذناب

سمك . وبالاختصار فقد كانت مخلوقات جمعت اعضاء كل اصناف الحيوان المعروفة . اضف الى ذلك اسماكاً وزواحف وأفاعي وحيوانات ضخمة اخرى كانت تتخذ اشكال بعض البحر وحياتها . وقد حفظت لكل هذه رسوم في هيكل بلوس في بابل »

وكانت السيادة على كل هذه تعود الى امرأة تسمى تلاث (Thalath) اي البحر او البحر) . فجاء بلوس وقسم المرأة الى قسمين ، وصنع من نصفها الواحد الارض ومن نصفها الآخر السماوات . وفي الوقت نفسه قتل الحيوانات التي كانت فيها » (هذا الجزء ترجم بتصرف)

« وكان الكون رطباً ، وهناك تولت الحيوانات ، فان الاله كِنْجُو (Kingu) فصل رأسه ، فجاء الآلهة ومزجوا دمه بالتراب فكان من ذلك الانسان ، ولذلك كان الانسان عاقلاً مدركاً (بتصرف ، ايضاً)

« وقام بلوس بقسمة الظلمة ، وفصل السماء عن الأرض ، وأوجد النظام في الكون ، لكن الحيوانات ماتت لأنها لم تقو على احتمال النور ، فلما رأى بلوس ذلك ورأى ان جزءاً كبيراً من الكون غير مأهول مع انه خصب جداً امر احد الآلهة (كنجو ايضاً) ان يفصل رأسه (رأس كنجو) ويمزج الدم بالتراب ويصنع رجالاً وحيوانات . تقوى على احتمال النور . ثم صنع بلوس النجوم والشمس والقمر والكواكب الخمسة ....»

٧ — ايضاحات لهذه الاسطورة

١ — قسم المرأة تلاث الى قسمين وصنع السماء والأرض من نصفيها حادثة حاول فيها واضع القصة ان يفسر الطريقة التي تكونت منها الأرض . وفي بعض الأساطير القديمة ان السماء والارض نصفا بيضة . .

٢ — فصل كنجو رأسه (المرة الأولى) ومزج دمه بالتراب خلق الانسان ، ومن ثم كان الانسان عاقلاً مدركاً . هذا شبيه بما في سفر التكوين (١ : ٢٧) « خلق الله الانسان على صورته » والمقصود بذلك « . . . ان يكون الانسان بمنزلة الملائكة بما له من سموّ شرف النفس وانفراده دون سائر الحيوانات بقوة العقل والادراك وروح الفضيلة — فهو مادي بأخذه من الارض وروحاني بنور نفسه وما اراده الله من الولاية والأشراف على كل شيء في الارض — تفسير التوراة — مراد فرج — ج ١ ص ٨٦ »

٣ — كان بلوس في منزلة جوبيتر عند الرومان

« التتمة في الجزء القادم » عكا (فلسطين) نقولا زيادة